

الواقعَ وَالمُتخيّل

(١) تتساءل في بداية هذه المداخلة عن دلالة الواقع الروائي الذي نعنيه. وبدون أن نسقط في استعراض تاريخي أو استطرادات أكاديمية، يمكن القول ان الواقع المقصود هنا غير الواقع الخارجي، أي أنه الواقع الرمزي الذي يقابل الواقع المادي.

(٢) والحق ان مائة سنة من الممارسات الروائية والنقدية العربية لم تعفِ (القارئ المتوهم) من الملابس والتناقضات المفهومية التي تحول بينه وبين قيام (تقليد أدبي) معين يسمح بموضوعة (الإبداع الروائي) داخل (الإنتاج الثقافي) السائد.

(٣) لقد نعتت رواية (الأرض) لعبد الرحمن الشراوي بأنها واقعية لإيهاهاها بواقع خصوصي. واستشاطت نقاشات خلال الستينات عن نوع من (الواقعية الاشتراكية) و(الالتزام) كعلامات على طريق (عكس الواقع) مرة و(محاكاته) مرة أخرى. إلا أن الالتباس لم يرتفع وظلت الكتابات الأيديولوجية - بظلة الحلبة طوال الفترة الناصرية والبعثية - تراهن على مزايدات أدبية، أصيبت بانتكاسة ٥ يونيو، ولكنها اكتسبت أنفاساً أخرى مع المتغيرات العربية سلباً وإيجاباً.

(٤) وبقيت (صورة الواقع) ضبابية أو وجودية أو شبه-واقعية. لأن أحداً لم يفكر في رسم الحدود الفاصلة بين العالم الروائي بإيهاهاها، والعالم الخارجي بتسطحه. لقد امتزجت صور الإيهاهاها بالحادث لحد توحدتها في شكل من أشكال المباشرة والتحايل على الشكل الروائي عن طريق دمجها في الخطاب اليومي أو التسجيلية المفرطة.

(٥) ويمكن القول إن ظهور (الوعي الوطني) بالعالم العربي، أفرز انتاجات روائية تاريخية تؤكد أساساً على وقائع معينة، احتلت (حركات الاستقلال) و(التأصيل) و(الوعي الحضاري) حجماً كبيراً داخلها.

وعبر هذا النوع التاريخي كانت الرواية تستمد سلطتها الإبداعية باسم واقعية ومعايشة وقائع تنزع نحو التأكيد في التحام مع الوعي السائد في أغلب الحالات والمعاكس في أقلها.

(٦) لقد كان السرد الحكائي المحور الأساسي لهذا الإنتاج كعلامة على طريق توقعت أن يستلهم نموذج المثلالي من (مخيلة سياسي) و(شكل كلاسيكي) لاقى إقبالاً من طرف جمهور يخضع لإغراءات خبير روائي تركيبي يتكئ على معلومات (قارئ متوهم) بحجم الواقع الصغير لبيئة تنبهر وتحديث ببطء.

(٧) ولقد ساعدت على ترسخ (الصورة الخاطئة) لمفهوم (واقع التوحد) بين (سلطة الرمز الروائي) و(سلطة الأشكال الخارجية) هذه التبعية التي أباهاها كل من الروائي والناقد معاً للدور التعليمي والأخلاقي الذي لا يراعي حدود الأنواع وقوالب تشكل (الأفكار التجريدية) التي تحسّد الشخصيات والمواقف والفضاءات.

(٨) إننا لا ننصب من أنفسنا حكام (الشروط الروائية)، كما لا نقضي بغياب مطلق (للإرهاصات الفردية) الجادة لأن ما

والمحتمل في الرواية المربّية

سعيد علوش

يهيئنا أساساً هو الاتجاهات والتيارات المحددة الرؤية والخاضعة لقانون ادبي يمتد عبر الأجيال ويحقق (استمرارية مرحلية). لأن ما هو حاصل الآن يدخل في إطار التبني لتعريفات وظواهر تخضع لإسقاطات وموضات خارجية في غياب تقليد أدبي مما يسمح (بواقعية ملصقات) حائضية أو (لاقتات للمزايدات الأدبية) التي لا يعززها (واقع الرمز الروائي) ولا (واقع البنيات التحتية) وهي الحالة التي يطلق عليها رودانسون (صوفية يسار العالم الثالث).

(٩) إن خصوصية (الواقع الوطني) لتغطي على كل (واقع قومي) بالرغم من مئات العناوين التي تحمل (دراسات في الواقع الروائي العربي) و(الواقعية في الأدب العربي) التي صدرت في أغلبها عن شرق هو إما (مصر) أو (سوريا) أو (لبنان) وكان الأولى ان يشار إلى (الوطنيات الروائية) بدل تسميات لا تحمل دلالة مسمياتها مما يفرغ جل هذه الأعمال من الصبغة الجدوية، إذ طوال عقود وغياب (المغرب العربي) مثلاً لا يقدم الدارس الشرقي اشارات لا في (تاريخ الأدب) ولا في (الإنتاج الروائي) ولا في (النقد الروائي).

(١٠) واستقراء بسيط للواقع بالرواية العربية يكشف عن نزوع الأخيرة إلى استهلاك بطولة (شخصيات تاريخية) بعينها، أو وصف (وقائع تاريخية) تؤكد ترسخها بالوجدان العام أو التركيز على (فضاءات ذات حساسية) خاصة وإلى هذا الحد والاستهلاك لا يثير ادنى تناقض لا عند (جيل جورجي زيدان) أو (جيل نجيب محفوظ) أو (جيل عبد الرحمن منيف).

(١١) وإذا كان الواقع (تاريخياً) عند جورجي زيدان. والواقع (اجتماعياً) عند نجيب محفوظ. فالواقع (سياسي) عند عبد الرحمن منيف.

ومن هنا فمنطقة الجاذبية تلتحم (بالواقع الايديولوجي) العام والذي وجه (واقع النهضة) التحديثة عن العرب.

(١٢) إلا أن الإشكالية ليست في كيفية تصنيف (واقع الأجيال)، ولكن في الكيفية التي عبرت عنها والأدوات الموظفة والرؤى الحياتية والمتطورة، لأن كل روائي يحمل واقعيته الخاصة، وليس هذا هو جوهر الإشكالية، لأن التعبير عن الواقعية هو ما يحدد (الواقع الرمزي بالرواية).

(١٣) واقع الوعي الوطني: لقد ارتبطت الرواية العربية بظاهرة من النادر جداً ان تخرج عنها، وهي هذا التوازي في ملاحظة (الواقع المادي) بأشكال تعبيرية مباشرة أو بمطابقة لا تخلو من تسجيلية كما لو كانت مهمتها الأساسية هي تحويل المتغيرات إلى ثوابت داخل متحفية السرد الروائي، وكما لو كان الانتصار على الواقع هو في محاصرته، وتقديمه في شكل وصف أدبية قارة.

(١٤) والحق ان ما كان مطروحاً هو (واقع الانفلات) من (واقع الوصف) إلى (واقع ساخر) لا ينسخ، ولكنه يثور ويشكل.

لقد أصبح من البديهيات ان نصادف داخل كل وطن عربي تركيزاً غريباً على (واقع الاستعمار) الإنجليزي أو الفرنسي، كما أصبح من البديهي ان نصادف (واقع البطل) العربي مقموماً و(واقع البطل) الاستعماري قامماً كما ان (واقع الأحداث) هو في صالح المواطن وليس ضده، والنهايات هي خواتم تحرر انتصرت فيه كل الطبقات بدون تناقض.

(١٥) وثلاثية نجيب محفوظ بمصر. وثلاثية المختار جنت بتونس.

وأعمال حنامينة بسوريا تدخل كلها في إطار هذا الرصد، واقع الوعي الوطني مع تفاوت درجات فنيته وبراعتها عند حنامينة ورداءتها عند المختار جنت، وتواضعها عند نجيب محفوظ.

(١٦) واقع الوعي الحضاري: بما ان (الممارسات الروائية) غير معزولة عن باقي الإنتاج الروائي العالمي بطريقتي أو بأخرى، فالتساؤل عن علاقات الأنا (العربي) بالآخر (الغربي) تكاد تتلاحق بمستويات مختلفة منذ (عصفور من الشرق) إلى (قنديل أم هاشم) إلى (الحي اللاتيني) ف(موسم الهجرة إلى الشمال) كأنضج وعي يطرح أنا (التحدي) في مقابل أنا (الانهارات) التي عبرت عنها الروايات السابقة.

(١٧) وقد عزز النقد الروائي هذا (الوعي الحضاري) عن طريق ربط الإنتاج الروائي بمذاهب ربط فيها الوجودية (بالسنان والحريف) والسوريالية في (يا طالع الشجرة) والرومانسية برواية (زينب) والكلاسيكية (بجورجي) وأخيراً الرواية الجديدة كما اعلن عنها بعض الروائيين.

(١٨) واقع الوعي بالصراع الايديولوجي: وهو ما نجده عند (عبد الرحمن الربيعي) و(عبد الرحمن منيف) وقد حاولا ان يعطياه تسمية (الرواية السياسية) أي بعداً أكبر مما يعبر عنه. إلا أن السمات العامة لهذه الرواية وكما ظهرت في الجزائر مع رواية (اللاز) للظاهروطار وفي فلسطين برواية (الصبار) عند سحر خليفة تؤكد على نزعة بث (الخبر الايديولوجي) كواقع جديد، يأتي نتيجته الاختيارات والتناقضات السياسية التي تعتمل في قلب عالم عربي ما بعد هزيمة يوليو مع خصوصيات كل وطنية.

(١٩) التخيل: إن ما يتخيله الروائي هو عالم موجود، أي ان التخيل قائم بالواقع المادي، ولا يخرج عنه حتى في حالات الهلوسة والهديان المحموم. إننا تتخيل بالأبيض والأسود كما تتخيل بالألوان، ونحن مشروطون بالمعطيات الخارجية، حتى في الحالات الشاذة إذا لم يقع تخيل احد منّا أشياء غير موجودة حتى في حالات الكتابات الروائية المستقبلية.

(٢٠) البطل الإشكالي، وإذا كان النظام الليبرالي اقتصادياً أو ثقافياً يطبع كل نشاطات العالم العربي، فقد مكن هذا المزاج البطل الروائي العربي من ان يظهر كبطل اشكالي يعبر عن توحيد المثقف الذي يثقف كل ما يقع عليه لمسه لحد ان

الإحساس بالرواية الثقافية لا يفارقنا خلال كل قراءة إذ لا مجال لرواية ميدانية تتحدث من داخل ولا تلون بالخارج الفردي لتجربة مثقف متوحد.

(٢١) والبطل الروائي العربي من هنا مثقف متوحد مها تعلمن أو تفلحن أو تبتلرن، وقد تظهر هذه الملاحظات كاسقاطات، لأنها تضع جميع الإنتاج في قفص واحد، إلا أننا لسنا بصدد الحديث عن الاستثناءات أو الحالات المنفردة، بل عن تجربة عربية ككل انطلاقاً من نوع ومن تشكل الفكرة- البطل لأننا لا نستطيع الحديث عن (جان فلجان) رواية عربية- أو (مدمام بوفاري) رواية عربية أو (الإخوان كارامازوف) الرواية العربية، بقدر ما نعثر على شخصيات من جليد لا تلتصق ان تدوب مع نهاية كل رواية.

(٢٢) الرواية والروائية: ولعل كل ما سبق يدفنا إلى التساؤل عن الرواية والروائية في العالم العربي. لقد قطعت الرواية أشواطاً بعيدة على مستوى الكم وترسخت بأذهاننا أسماء بعينها ولم تعد تذكر الرواية إلا ويعود بنا التفكير إلى مجموعة من الأسماء كعلامات على الطريق الإبداعي الطويل، بكل أشكالياته الاجتماعية والتاريخية والسياسية: أي ان الشكل الكلاسيكي تحقق بمستويات مختلفة، مما يدفع إلى التساؤل عن حظ الروائية بالرواية.

ولا أحد طرح حتى الآن قضية الروائية بالرواية العربية مع أهميتها في التمييز ما بين النوع الأدبي كمهنة أدبية والكتابة الأدبية كميّز اجتماعي.

(٢٣) والواقع ان أي حديث عن الروائية لا يمكن أن يتم إلا في حدود وجود روائيين تكونت لهم حصيلة من التجارب والآفاق داخل (حقل مفهومي) معين يمكن أن يكون هو (الاستيعاب) كشيء لا يمكن أن يتم إلا إذا توفرت للروائي مجموعة من المعطيات النظرية والمنهجية تتحقق في (الروائية) أو (العضوية).

(٢٤) وفي منظورنا لا يمكن أن تتحقق الروائية إلا في التوزيع المتكافئ والمتناقض والتحويلي لأجزاء الخطابات الاجتماعية داخل اللغة المعنية وبلغات متعددة المستويات الأيديولوجية والتاريخية والفلسفية.

إن ما يقع حالياً هو تكون أسلوب أدبي معين، حيث تطرح به أحداث معينة، لحد التساؤل عن الفوارق بين روايات (الكرنك) و(السيد المحترم) و(الخرافيش) لنجيب محفوظ ولحد ان النقاد اخذوا يرددون تجاوزه هذا الأخير ونهايته.

(٢٥) الأسلوب والأسلوبية: والواقع أنه لم توجد معالجة دقيقة قبل القرن ٢٠ لمشاكل أسلوبية الرواية القائمة على الأصالة الأسلوبية للخطاب بالنثر الأدبي، ووقع الاهتمام باستعارية تعبيرية ووضوحية واحكام قيمة وملاحظات ظرفية أكثر من أي اعتماد على الخطاب الأدبي كضرب من الوسط (الخارج- أدبي) والذي لم يحط بأي انجاز خاص وأصيل لأن كل محاولات

التحليل الأسلوبية الملموسة للنثر الروائي ضاعت في الوضعية السانية للغة الروائي أو انحصرت في تقديم عناصر الأسلوبية المعزولة.

(٢٦) واقتصر التعامل على (حولة- أدبية) تظهر بالحديث العام كوسيلة بسيطة للتواصل في شبه حياد تام عن الفن. ويتغير الوضعية خلال العشرينات، أخذ الخطاب الروائي النثري يحتل مكانته بالأسلوبية.

(٢٧) وظهر الاهتمام بالرواية ككل في شكل ظاهرة متعددة- الأسلوبية، متعددة- اللغات، متعددة- الأصوات. وأمکن من هنا (ليخائيل باختين)، استعراض أهم نماذج الوحدات المكونة والأسلوبية والمشكلة عادة لمختلف اجزاء المجموع الروائي كالتالي:

(١) السرد المباشر والأدبي في مختلف تشكيلاته.
(٢) أسلبة مختلف الأشكال السردية الشفوية التقليدية او الحكائية المكتوبة.
(٣) أسلبة مختلف اشكال السرد المكتوب والشبه- أدبي والسائد رسائل/ يوميات خاصة الخ.
(٤) أسلبة مختلف الأشكال الأدبية، والتي لا تتصل بالفن الأدبي وبالخطاب الكاتب: كتابات اخلاقية/ فلسفية/ استطراد علمي/ تفخيم بلاغي/ وصف اثوغرافي/ ملخصات... الخ.

(٥) أسلبة خطاب الشخصيات، والخطاب الفردي.
(٢٨) ويقدم (ميخائيل باختين) هذه الوحدات المختلفة كترام داخل الرواية على ان يصبح من مهامه تكوين نظام ادبي متناسق، ومن ثم يصبح اسلوب الرواية التحاماً للأساليب، وتصيح لغة الرواية نظاماً للغات.

(٢٩) المحتمل: والمحتمل في الرواية العربية هي ان تحقق هذا (التنوع الاجتماعي للغات، ولللكلام وللأصوات الفردية على أساس تحقق عضوية أدبية).

وتتطلب هذه (المعطيات الضرورية من اللغة الوطنية والقومية ان تنفرع الى لهجات اجتماعية.

- تقمص الجماعة.
- حرفية.
- لغة الأنواع.
- أحاديث الاجيال/ الأعمار/ المدارس/ السلط/
الحلقات/ الأنماط العابرة.

- اللغة اليومية/ الظرفية/ الاجواء/ السياسة.
على ان يحقق الخطاب الروائي بتنوعاته وتناقضاته وحدات مكونة للأساس الذي يسمح لتعدد لغوي من ان يدخل الروائية ومن هنا (تنظم الأصوات الاجتماعية والتاريخية التي تتقمص اللغة (بكل مفرداتها واشكالها) التي تمنحها دلالات ملموسة ودقيقة بالرواية في ائتلاف اسلوبي منسق، يعبر عن الوضعيات السوسيو- ايدولوجية المختلفة للكاتب في قلب التعدد اللغوي لعصره).